المفسران الأندلسيان
ابن فَرْح القرطبي وابن جُزَيّ الكلبي
وعقيدتهما في القدر من خلال تفسيريهما
الجامع لأحكام القرآن والتسهيل لعلوم التنزيل

إعداد
خالد بن ناصر آل حسين الغامدي
الأستاذ المساعد بقسم العقيدة
كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ أما بعد ،،

فإن التصنيف في أي فن من الفنون يكشف شخصية الباحث، وموارده التي يستقي منها، وأفكاره التي يعتنقها ويدافع عنها، وبين يدي طلبة العلم كتب لعالمين شهيرين من غرب العالم الإسلامي من بلاد الأندلس المفقودة -أعادها الله- وهما ابن فرح القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) وابن جزي الكلبي، في تفسيره (التسهيل لعلوم التنزيل)، وقد حاولت من خلالهما استخراج أهم المسائل العقدية في القدر، وإن كان بين التفسيرين بعض التباين من حيث الطول والقصر والإسهاب والاختصار، والزمن الذي عاش فيه كل منهما .

ولعل تسليط الضوء على عقيدة هذين العالمين الجليلين يكشف لطالب العلم عقيدتهما في مسألة من أهم مسائل أصول الدين .

ومن المهم بمكان التنويه إلى أن هذا البحث جاء في مقدمة وتمهيد وأربعة عشر فصلاً وخاتمة وفهارس، على النحو التالي :

المقدمة
التمهيد : وفيه مبحثان:
المبحث الأول: ترجمه موجزة للإمام القرطبي المفسر ابن فَرْح.
المبحث الثاني: ترجمة موجزة لابن جُزَيّ الكلبي.
الفصل الأول:الأدلة العامة على القدر.
الفصل الثاني: حكم منكري القدر.
الفصل الثالث: مراتب القدر : وفيه أربعة مباحث:
المبحث الأول: مرتبة العلم.
المبحث الثاني: مرتبة الكتابة.
المبحث الثالث: مرتبة المشيئة.
المبحث الرابع: مرتبة الخلق.
الفصل الرابع: الميثاق.
الفصل الخامس: الفطرة.
الفصل السادس: خلق أفعال العباد.
الفصل السابع: الهدى والضلال.
الفصل الثامن: الطبع، الختم، الغشاوة، الأكنّة.
الفصل التاسع: القضاء، قضى، قضينا.
الفصل العاشر: قدرنا، قدرناها، قيضنا، مقضياً.
الفصل الحادي عشر: السبق بالحسنى والنصر.
الفصل الحادي عشر: الاحتجاج بالقدر.
الفصل الثالث عشر: اللوح المحفوظ.
الفصل الرابع عشر: الآجال بقدر.
الخاتمة.
الفهارس.

وفـــي ختام هذه المقدمة أحمد الله تعالى وأثني عليه بما هو أهله وأشكره على سابغ نعمائه وفضله، وأشكره على الستر والمعافاة، وإن كان من خطأ في هذا البحث فهو مني وأستغفر والله وإن كان من صواب فهو منه وحده جل وعز، كما لا يفوتني أن أشكر كل من ساعدني في إتمام هذا البحث وإخراجه بهذه الصورة، وصلي اللهم على عبد ونبيك محمد .

تمهيد:

العلمـــاء والفقهاء الأندلسيون نبغ فيهم عشرات بل مئات واشتهر منهم أعلام مجتهدون في شتى الفنون، وهم -من خلال كتبهم-، بين مجتهد مصيب وبين مخطئ مغفـــور لـــه ؛ لبذله الوسع في إعمال النصوص الشرعية للوصول إلى الحق، وبين يديـــنا علمين من أعلام الأندلس الشهيرين نبغا في علم من أهم العلوم الإسلامية، ألا وهـــو علـــم التفســـير، وعلوم القرآن، وإن كان بينهما اتفاق في المعتقد إلا أن المدة بيـــنهما تقـــرب من قرن ونصف، كما أن المنهجية تختلف بينهما فالقرطبي في كتابه الجـــامع لأحكـــام القرآن بنى تفسيره على التوسع والأخذ بالآثار وأقوال العلماء، ثم الترجـــيح، أما الكلبي فبنى تفسيره على الاختصار قدر الإمكان، مع ذكر الأقوال في المســـألة في بعض الأحيان دون ترجيح، ولذا يعتبر تفسيره خلاصة منتقاة من كتب من سبقه، وعليه فإنه من المفيد أن نتعرف على عقيدة هذين العالمين في مسألة مهمة من أركان الإيمان وهي عقيدة القدر.

وسيكون عملي بحول الله وقوته على النحو التالي :

* سأستخلص من تفسيريهما أهم المسائل في عقيدة القدر .
* ســـأورد أهم الأدلة في المسألة وأهم ما تكلم به الفقيهين فيها مما أجده من كلامهما.
* ســـأتخرج فـــي نهايـــة كل فصل ومبحث خلاصة لما تقدم من كلام، إن اقتضى المقام ذلك .
* لـــن أتعرض بالرد على الأقوال المرجوحة التي قد ترد في كلامهما وإنما ســـأنوه إلى ما خالف القول الصحيح ؛ لأن البحث مبني على الاختصار وبيان عقيدة كل منهما رحمهما الله .

وأرى أنـــه من المناسب في هذا التمهيد أن أقدم ترجمة موجزة لهذين العلمين في مبحثين .

المبحث الأول

ترجمه موجزة للإمام القرطبي المفسر ابن فرح

نسبه:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح القرطبي، وفرح بسكون الراء[١] الأنصاري الخزرجي المالكي[٢].

علمه وفضله:

«قال المقريزي كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشتغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة .. وفي تاريخ الكتبي: كان شيخاً فاضلاً، وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة إطلاعه ووفور علمه، ومنها (تفسير القرآن). ملـيح إلى الغاية، اثنا عشر مجلدا» [٣] (قلت): وهو الكتاب سنبين منه عقيدته في القدر .

مشايخه:

سمع الإمام القرطبي شيخه الحافظ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، صاحب المفهم في شرح مسلم، وحدث عن الحافظ أبي الحسن على بن محمد اليحصبي، وعن الحافظ أبي علي الحسن البكري وغيرهما.[٤]

وقال السيوطي في وصفه: «مصنف التفسير الذي سارت به الركبان، وفي أسامي الكتب، وكان تفسيره المذكور يسمى بجامع أحكام القرآن، وهو كتاب من أجل الكتب في سفرين».[٥]

---

(١) انظر نفح الطيب ٢/٢١٠، الديباج المذهب ١/٣١٧.

(٢) انظر (طبقات المفسرين، للحافظ سمش الدين محمد بن علي، ص٩٢، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة (مصر)،ط. الأولى ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م).

(٣) نفح الطيب ٢/٢١١.

(٤) المصدر نفسه ٢/٢١١.

(٥) (طبقات المفسرين، للحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ١/٢٤٦، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة(القاهرة) ط. الأولى ١٣٩٦هـ) .

وقال عنه الذهبي: «إمام متفنن متبحر في العلم لـــه تصانيف مفيدة تدل على كثرة إطلاعه و وفور عقله وفضله»[1]

أهم مصنفاته:

-الجامع لأحكام القرآن (في التفسير).

- الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

-التذكرة في أمور الآخرة .

- شرح التقصي .

- التذكار في أفضل الأذكار[2] وغيرها من المصنفات[3].

وفاته:

توفـــى رحمـــه الله بمنـــية ابـــن خصـــيب ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة (٦٨١هـــ) ودفن بها.[4]

المبحث الثاني

ترجمة موجزة لابن جُزَيّ الكلبي

نسبه:

«هـــو محمـــد بـــن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَيّ الكلبي، يكنى أبا القاسم».[5]

علمه وفضله:

كـــان رحمه الله على طريقة مثلى من العكوف على العلم والتقييد و التدوين، فقـــيهاً حافظـــاً، قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون من العربية والفقه والأصول

---

(١) نفح الطيب ٢/٢١٠.

(٢) المصدر السابق ٢/٢١١.

(٣) انظـــر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى القسطنطيني الرومي ١/٣٩٠،٣٨٣، دار الكتب العلمية (بيروت) ١٤١٣هـــ ١٩٩٢م) .

(٤) انظر نفح الطيب ٢/٢١١.

(٥) الإحاطة ٣/٢٠.

والقراءات والحديث والأدب، حافظاً للتفسير مستوعباً للأقوال جماعة للكتب، ملوكي الخـــزانة، حسن المجلس ممتع المحاضرة. تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله[1] .

قلت: وهو من العلماء العاملين المجاهدين بأنفسهم وأموالهم وبذله في التاريخ الأندلسي أشهر من أن يذكر .

مشايخه:

ذكر ابن الخطيب جلة من مشايخه واقتصر على بعضهم وهم: أبو الحسن ابن مســتقور، أبـــو عبد الله الكماد، أبو عبدالله بن رشيد، أبو محمد عبد الله ابن المؤذن، أبو الوليد الحضرمي[2] .

مصنفاته:

منها: كتاب: وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم.

- الأنوار السنية في الكلمات السنية.
- كتاب الدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار.
- القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية.
- التنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية.
- تقريب الوصول إلى علم الأصول[3].

قلت: وله كتاب التسهيل لعلوم التنـــزيل، مطبوع ومتداول، وهو قيم في بابه، وهو الكتاب الذ سنستخلص منه عقيدة الكلبي في القدر.

وفاته:

«فقـــد وهـــو يشـــحذ الـــناس ويحرضـــهم ويثبت بصائرهم في يوم الكاينة بطـــريف[4]ضـــحوة يوم الاثنين السابع لجمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبع مائة (٧٤١ هـــ) تقبل الله شهادته»[5] .

---

(١) انظر المصدر السابق ٣/٢١،٢٠، الديباج المذهب ١/٢٩٥.

(٢) انظر الديباج المذهب ١/٢٩٥، نفح الطيب ٥/٥١٤ .

(٣) انظر الإحاطة ٢/٢١، ٢٢.

(٤) طريف: جزيرة ببر الأندلس بينها وبين قصر مصمودة نحو العشرين ميلاً انظر (معجم البلدان ١/٢٦٣)

(٥) الإحاطة ٣/٢٣.

الفصل الأول

الأدلة العامة على القدر

تعـــرض الإمامـــان القرطبي وابن جزي لأدلة القدر التي ورد فيها لفظ القدر وأوردا النصوص من الكتاب الكريم والسنة المطهرة وآثار السلف، ومن ذلك[١]:

الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٢].

كمـــا استشـــهد القرطبـــي بأدلـــة من السنة بحديث عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر».[٣]

وعدهـــا ابـــن جزي من الأدلة القاطعة على أن كل شئ بقدر وقال: «المعنى أن الله خلق كل شئ بقدر أي بقضاء معلوم سابق في الأزل.. وفيه محاجة لأهل السنة على القدرية».[٤]

كمـــا اســـتدل القرطبي بأثر عن السلف الصالح في مسألة القدر، قال: « ذكر الحسن بن علي الحلواني قال أملي على علي بن المديني قال سألت عبدالرحمن بن مهـــدي عن القدر فقال لي كل شيء بقدر والطاعة والمعصية بقدر وقد أعظم الفرية مـــن قـــال إن المعاصـــي ليست بقدر قال علي وقال لي عبدالرحمن بن مهدي العلم والقدر والكتاب سواء».[٥]

واستدل كذلك بسورة القدر﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.[٦]

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٤٧/١٧، والتسهيل لعلوم التنزيل ٨٢/٤.

(٢) سورة القمر : الآية (٤٩).

(٣) رواه مسلم ٢٠٤٦/٤، باب كل شئ بقدر ، رقم : ٢٦٥٦.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٨٢/٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠٣/٧.

(٦) سورة القدر : الآية(١).

وقال نقلاً عن مجاهد: «ليلة القدر قال: ليلة الحكم والمعنى ليلة التقدير سميت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره إلى مثلها من السنة القابلة من أمر الموت والأجل والرزق وغيره».[1]

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [2] قال: قال الحسن: «فيها يقضي الله كل خلق وأجل ورزق وعمل إلى مثلها».[3]

وقال ابن جزي: « معنى يفرق: يفصل ويخلص، والأمر الحكيم : أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم في ذلك العام نسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر ليمتثل الملائكة ذلك بطول السنة القادمة ».[4]

خلاصة: استدل القرطبي والكلبي بالأدلة القاطعة على إثبات القدر وعدا الإيمان به من أوجب الواجبات وأهم الأركان.

الفصل الثاني

حكم منكري القدر

استدل أهل العلم -كما سبق آنفاً- على وجوب الإيمان بأقدار الله تعالى وكتابته لها في الأزل البعيد قبل خلق الكون وبينوا أن منكري القدر ليسو من الإيمان في شئ وأنه لا يجوز التعامل مع القدرية ولا الصلاة خلفهم بل يجب بغضهم في الله لشناعة بدعتهم.

وقد أورد ابن فرح قول الله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾.[5]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٣٠.

(٢) سورة الدخان: الآية(٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٢٧/١٦.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٤.

(٥) سورة المجادلة: الآية (٢٢).

وقال في موضع آخر مبيناً حكم التعامل معهم والصلاة خلفهم:

«استدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم قال أشهب عن مالك لا تجالس القدرية وعادهم في الله لقوله تعالى لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله».[1]

وقال في موضع آخر مبيناً حكم التعامل معهم والصلاة خلفهم: «وقال أحمد لا يصلي خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك: لا يصلي خلف أئمة الجور ولا يصلي خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم».[2]

خلاصة: بينوا أنه لا يجوز التعامل مع أهل البدع المنكرين للقدر، وأنه يجب هجرهم في الله تعالى وعدم مجالستهم أو الصلاة خلفهم.

الفصل الثالث

مراتب القدر

باستقراء النصوص الشرعية من الكتاب والسنة قسم علماء السنة القدر إلى أربعة مراتب .

الأولى : العلم فقد علم الله ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

الثانية : الكتابة، بعد العلم حيث كتب ذلك في لوح محفوظ .

الثالثة : المشيئة، ثم شاء الله ما كان وما يكون في الوجود من الهدى والضلال والخير والشر ونحو ذلك.

الرابعة : الخلق، ثم أبرز ذلك المعلوم المكتوب المقدر إلى شئ مخلوق موجود .

وبالنظر في كتب هذين العالمين وجدت تقريرهما لهذه المراتب دون النص عليها بهذا الترتيب، ولعله قد وجد عند غيرهما من علماء محققي السنة، أو لعله وجد بعدهما من رتب ذلك، وإن كانا من حيث الجملة والتفصيل يقرران أنها حق وذلك بالتعليق على النصوص الدالة عليها في مواضعها.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٨/١٧.

(٢) المصدر السابق ٣٥٦/١.

المبحث الأول

مرتبة العلم

استدل القرطبي والكلبي بأنواع من الأدلة على علم الله تعالى ومن ذلك:

١- سعة علم الله تعالى وعدم الإحاطة به[١]، واستدلا بقوله تعالى:﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.[٢]

٢- علم الله في الأرض وفي السماء[٣] واستدلا بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ﴾.[٤]

٣- علم الله المفسد من المصلح[٥]، واستدلا بقوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ .[٦]

٤- مفاتح الغيب بيد الله[٧]، واستدلا بقوله تعالى:﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾. [٨]

وأورد القرطبي حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله».[٩]

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٧٦/٣، والتسهيل لعلوم التنزيل ٨٨/١.

(٢) سورة البقرة : الآية(٢٥٥).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ٣٩٠/٦، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢/٢ .

(٤) سورة الأنعام: الآية(٣).

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن ٦٥/٣، والتسهيل لعلوم التنزيل ٧٩/١.

(٦) سورة البقرة: الآية(٢٢٠)..

(٧) انظر الجامع لأحكام القرآن ١/٧، والتسهيل لعلوم التنزيل ١١/٢.

(٨) سورة الأنعام: الآية(٥٩).

(٩) رواه الإمام أحمد في المسند ٨٥٨/٢، وابن حبان في صحيحه ٥٠٤/١٣، رقم: ٦١٣٤ .

٥- علم الله تعالى بالجزئيات[١]، واستدلا بقوله تعالى:﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ.﴾ [٢]

٦- علم الله بتقلبات وأحوال البشر[٣]، واستدلا بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾[٤]

٧- إحاطة علم الله بكل شئ[٥]، واستدلا بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[٦]

وقال القرطبي تأكيداً على ما مضى من عقيدة أهل السنة والجماعة: «الثاني: أن الله ﷻ عالم بما هو كائن قبل كونه فكانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة بعلمه قبل كونها».[٧]

وقال أيضاً في موضع آخر مقرراً حقيقة القدر: «..تعالى فإنه عالم بكل موجود ومعدود وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة».[٨]

وقال ابن جزي مقرراً هذه المرتبة: «القاعدة المتقررة أن القضاء لا يبدل وأن علم الله لا يتغير». [٩]

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ٤/٧ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ١١/٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية(٥٩).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢١٤/١٦ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ٤٨/٤.

(٤) سورة محمد: الآية(١٩).

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن ٣٥٠/١٦، والتسهيل لعلوم التنزيل ١٣٠/٤.

(٦) سورة الطلاق: الآية(١٢).

(٧) انظر الجامع لأحكام القرآن ٩١/٢.

(٨) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٠.

(٩) التسهيل لعلوم التنزيل ١٣٦/٢.

المبحث الثاني

مرتبة الكتابة

ذكر العلماء هذه المرتبة الجليلة من مراتب القدر وتلكموا عليها وعلى أدلتها، وقد بينوا أنها بعد مرتبة العلم فعلم سبحانه ثم كتب، وقد ذكر القرطبي والكلبي الأدلة عليها وأوضحوا معاني الأدلة، ومن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[١]

قال القرطبي: «ما فرطنا في الكتاب من شيء أي في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث». [٢]

وفسر ابن جزي الكتاب بأنه اللوح المحفوظ، وقيل إنه القرآن[٣] بصيغة التضعيف .

٢- قوله تعالى:﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ ﴾[٤] ذهب القرطبي في تأويله أنه ما قدره الله في كتابه السابق.[٥]

وفسر ابن جزي الكتاب بأنه ما قضاه الله في الأزل من العفو عنهم، وقيل ما قضاه الله من تحليل الغنائم.[٦]

٣- قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾[٧] وقال القرطبي: «كان ذلك في الكتاب: أي في اللوح المحفوظ مسطوراً: أي مكتوباً». [٨]

---

(١) سورة الأنعام: الآية(٣٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/٤٢٠.

(٣) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ٢/٨.

(٤) سورة الأنفال: الآية(٦٨).

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٨/٥٠.

(٦) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ٢/٩٨، ٩٩.

(٧) سورة الإسراء: الآية(٥٨).

(٨) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٢٨٠.

وقال ابن جزي: «يعني اللوح المحفوظ» [1]

٤- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[2] وبين القرطبي أنه اللوح المحفوظ[3] واستدل بأثر عن ابن عباس: «أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد».[4]

وكذا ابن جزي فسره بأنه اللوح المحفوظ أي القرآن وُصِف في اللوح المحفوظ بأنه علي حكيم .[5]

إلى غير ذلك من الأدلة التي دلت وتدل على أن المولى كتب كل شئ في اللوح المحفوظ .

المبحث الثالث

مرتبة المشيئة

والمشيئة مرتبة تلي الكتابة دلت عليها النصوص المتكاثرة المستفيضة التي تفيد أن كل شئ بمشيئة الله وإرادته سبحانه، وقد تكلم القرطبي وابن جزي على آيات المشيئة ومن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء ﴾[6] قال القرطبي في تفسير الآية « ..رد على القدرية في نفوذ المشيئة » [7]

٢- قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾[8] أوردها القرطبي في سياق الاستدلال على مشيئة الله في شرحه لآية الفتح عند دخول مكة والاستثناء الوارد فيها بالمشيئة.[1]

---

(١) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ١٧٤/٢.

(٢) سورة الزخرف: الآية(٤).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ٦٢/١٦.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك ٤٩٢/٢، رقم: ٣٦٩٣ موقوفاً . والترمذي في سننه ٤٥٧/٤ رقم: ٢١٥٥، الباب ١٦ . كتاب القدر .مرفوعا .

(٥) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ٢٥/٤.

(٦) سورة إبراهيم: الآية(٤).

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٣٤٠/٩، وانظر كذلك: التسهيل لعلوم التنزيل ١٣٧/٢.

(٨) سورة الكهف: الآية(٢٣، ٢٤).

وعند ابن جزي: أن المعنى أن يعلق الأمر بمشيئة الله وحوله وقوته ويبرأ هو من الحول والقوة.[٢]

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ﴾[٣] وذهب القرطبي أن الله يبين بهذه الآيات أن العبد لا يعمل خيراً إلا بتوفيق الله ولا شراً إلا بخذلانه، وساق جملة من الآيات.[٤]

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكُواْ﴾[٥] قال القرطبي: «نص على أن الشرك بمشيئة الله، وهو إبطال لمذهب القدرية».[٦]

إلى غير ذلك من الأدلة التي نصت على مشيئة الله الشاملة لكل ما في الكون.

المبحث الرابع

مرتبة الخلق

وهي المرتبة الرابعة من مراتبِ القدر، ومعناها إيجاد وإبراز ما علمه وكتبه وشاءه إلى حيز الوجود، وقد ذكر القرطبي أن الخلق يطلق ويراد به وجهان:

أحدهما: التقدير، يقال: خلقت الأديم للسقاء إذا قدرته، قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض الناس يخلق ثم لا يفري

الثاني: الإنشاء والاختراع والإبداع.

قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[٧]، وهذان الوجهان يعنيان المصطلح الشرعي للخلق.

١- وقد استدل بعد التعريف[٨] بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[٩] على المعنى الشرعي وهو الإيجاد بعد العدم. وكذا ابن جزي وعلل للعبادة: أي خلقكم لتتقوه.[١]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٩٠/١٦.

(٢) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ١٨٦/٤.

(٣) سورة الإنسان: الآية(٣٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٣/١٩، وكذلك ٩٧/١٤.

(٥) سورة الأنعام: الآية(١٠٧).

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٦٠/٧.

(٧) سورة العنكبوت: الآية(١٧).

(٨) الجامع لأحكام القرآن ٢٩٠/١٦، وللمزيد انظر التسهيل ٤١١/٣.

(٩) سورة البقرة : الآية(٢١).

٢- واستدل القرطبي[٢] بقوله ﷺ كما ورد في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة:« لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي».[٣]

٣- قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[٤] المعنى خالق كل موجود قائم بتدبير كل شئ[٥] (قلت): والخلق والقيومية أتم معاني الربوبية.

إلى غيرها من الآيات الكريمات المتكاثرات والتي دلت على خلق الله لكل شئ في الوجود .

خلاصة: استدل القرطبي والكلبي بأدلة عديدة على مراتب القدر ولم أجد لديهم ترتيباً معينا لهذه المراتب وإنما أوردوها في مواضعها دون النص على ترتيبها الذي رتبه العلماء المحققون من أهل السنة والجماعة .

الفصل الرابع

الميثاق

تعددت أقوال أهل العلم في مسألة الميثاق الذي أخذه الله على العباد كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[٦]

وقد تكلم القرطبي على هذا الميثاق في مواطن عدة من تفسيره، ويمكن أن ترجع الأقوال التي أوردها فيه إلى أنه:

---

(١) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ١/٤٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/٢٠٦.

(٣) رواه البخاري ٦/٢٦٩٤، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم: ٦٩٦٩ .ومسلم ٤/ ٢١٠٧، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم: ٢٧٥١ .

(٤) سورة الزمر : الآية(٦٢).

(٥) انظر التسهيل للعلوم التنزيل ٣/١٩٨.

(٦) سورة الأعراف: الآية(١٧٢).

* دلهم بخلقه على توحيده.
* أنه معرفة الرب تعالى.
* أنه الرب وأنه لا إله غيره. [1]

ثم تكلم على كيفية ذلك العهد وأين كان، وذكر الأقوال أنهم أخرجوا أمثال الذر أو أن الذرية أخذت من ظهور بني آدم كما يؤخذ بالمشط من الرأس، وأن المعنى دلهم على دلائل ربوبيته، وقال معقباً على تلك الأقوال: «قلت: كل هذه الأقوال محتمل والصحيح منها ما يعضده التنزيل»[2] ولعله يقصد بذلك ما دلت عليه الأحاديث من أنه إخراج حقيقي كعالم الذر، والله أعلم.

وعند ابن جزي ما خلاصته: حيث أفاد أن في معنى الآية قولان:

الأول: لما خلق الله آدم أخرج ذريته أمثال الذر وأخذ العهد عليهم بأنه ربهم فأقروا بذلك.

الثاني: أنه من باب التمثيل، وأن أخذ الذرية عبارة عن إخراجهم إلى الدنيا وما نصبه من الأدلة على ربوبيته.

ورجح الأول لدلالة الأحاديث عليه إلا أنه قال: وقد عَدَلَ عنه من قال بالقول الآخر[3].

خلاصة: تكلما على الميثاق واستدلا عليه بالأدلة الشرعية، وذكر القرطبي أن فيه ثلاثة أقوال ومال إلى أن المراد بالإخراج في عالم الذر حقيقي كما دلت عليه النصوص. أما الكلبي فاختصر معنى الميثاق في قولين: أنه حقيقي في عالم الذر أو أنه الدلائل الكونية على الربوبية دون ترجيح .

الفصل الخامس

الفطرة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٣١٤، ٣١٥، وكذلك ٢٩/١٤.

(٢) المصدر السابق ١٦٩/٧، وانظر كذلك ٣١٨/٧.

(٣) انظر التسهيل للعلوم التنزيل ٥٣/٢، ٥٤.

مـــن المســـائل التي اختلف العلماء[١] في ترجيح معناها مسألة الفطرة، وهو خلاف لا إشكال فيه لأن الأقوال فيه متقاربة غير متضاربة .

وقـــد عـــرف القرطبـــي الفطـــرة لغـــة بأنها مصدر وهي أصل الخلقة على التوحيد[٢] وعرفها ابن جزي بأنها الخلقة [٣].

وتعدد الأقوال في معنى الفطرة الواردة في قوله تعالى: ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه﴾ .[٤]

فقيل: إن الفطرة هي الإسلام.

وقيل: هي الهدى.

وقيل: هي الإسلام.

وقـــيل: هي البداءة التي بدأ الله الخلق عليها من السعادة والشقاوة وإلى المصير الذي يصيرون إليه ؟

وقيل: هي الخلقة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [٥] أي خلقني.

وقيل: هي التوحيد الذي هو ضد الشرك .

ورجـــح القرطبي بعد كلام طويل له أن الفطرة هي الخلقة التي يميز بها بين مصـــنوعات الله تعالى. وذكر أن هذا هو قول واختيار ابن عبد البر وابن عطية في تفسيرة وشيخه أبو العباس القرطبي. [٦]

وذكـــر ابن جزي قولاً واحداً أن الفطرة هي الخلقة التي فطر الناس عليها وهي دين الإسلام[٧].

---

(١) انظر قول القرطبي في ذلك: الجامع لأحكام القرآن ٢٤/١٤.

(٢) انظر المصدر السابق ٢٤/١٤.

(٣) انظر التسهيل للعلوم التنزيل ١٢٢/٣.

(٤) سورة الروم: الآية(٣٠).

(٥) سورة يس: الآية(٢٢).

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٤/١٤ – ٣٤، وكذلك ١٢٧/١٠، ٢٠٥، ١٨/١٥، ١٨/ ١٣٣، ٢٠/ ١٤١.

(٧) انظر التسهيل للعلوم التنزيل ١٢٢/٣.

خلاصـــة: تكلمـــا على معنى الفطرة وكلام العلماء فيها، ورجح القرطبي أن معـــنى الفطـــرة الخلقة التي خلق العباد عليها للتمييز بين مخلوقات الله . بينما ذكر الكلبي قولاً واحداً وأن معنى الفطرة: الخلقة.

الفصل السادس

خلق أفعال العباد

خلـــق أفعال العباد من المسائل التي غالى فيها بعض الفرق حتى جعلوا العبد مخـــتاراً بـــإطلاق فهو الذي يخلق فعل نفسه، وهم القدرية، وقابلهم طائفة غالوا في إثـــبات القدر حتى سلبوا من العبد الاختيار، وأنه لا مشيئة لـــه أبداً، وإنما هو مسير يفعـــل ما قدر لـــه.. وتوسط أهل السنة والجماعة في ذلك، فأثبتوا اختياراً للعبد في أفعاله وكذلك أن كل أفعاله مخلوقة لله ﷻ .

وقد استدل القرطبي وابن جزي على خلق أفعال العباد بأدلة عدة منها:

١- قول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.[١]

قـــال القرطبـــي: «والـــتقدير والله خلقكم وعملكم، وهذا مذهب أهل السنة أن الأفعال خلق لله ﷻ واكتساب للعباد، وفي هذا إبطال لمذهب القدرية والجبرية» [٢]

وفي تفسيره للآية ذكر ابن جزي هذه الأقوال دون ترجيح، وقال: «ذهب قوم إلـــى أن مـــا مصدرية، والمعنى خلقكم وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعـــال العباد، وقيل إنها موصولة بمعنى الذي، والمعنى والله خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها»[٣].

٣- واستدل القرطبي بقول النبي ﷺ :«إن الله خالق كل صانع وصنعته» [٤]، وقال: «وهو الصانع سبحانه، وقد بيناها في الكتاب الأسنى».[١]

---

(١) سورة الصافات الآية(٩٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩٦/١٥.

(٣) التسهيل للعلوم التنزيل ١٧٣/٣.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك ٨٥/١، رقم: ٨٥ . والبيهقي في شعب الإيمان ٢٠٩/١، رقم:١٨٩.

٤- دليل عقلي:

كما ساق القرطبي عدة أدلة عقلية على أفعال العباد. واقتصر على واحد منها يفي بما أراده من إثبات القدر عقلاً، حيث قال ما فحواه: إن الله تعالى أوجد المخلوقات من العدم بعد أن لم تكن، فكل موجود فهو محدث، وعمله كذلك من خير أو شر والله سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم لا شريك له، فكل فعل فهو مخلوق له واكتساب من العبد بنفسه واختياره[٢].

وقد ساق في عدة مواضع خلاصة قول أهل السنة والجماعة في خلق أفعال العباد: «والذي عليه الأئمة والجمهور من الأمة إن الله خلق الكافر وكفره فعل له وكسب[٣] مع أن الله خالق الكفر وخلق المؤمن وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ؛ لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه ولا يجوز أن يوجد من كل واحد الذي قدر عليه وعلمه منه ؛ لأن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩٦/١٥، وانظر كذلك ١٣٩/٢، وقد ذكر الأدلة وساق خلاصة قول أهل السنة والجماعة بما يشبه هذا القول .

(٢) انظر المصدر السابق ٣١٤/١٦.

(٣) مما يجدر إليه التنبيه القول الذي قالته بعض الفرق في مسألة كسب العبد، وذلك أنهم « قالوا الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة و الخلق هو المقدور بالقدرة القديمة و قالوا أيضا الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه و الخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه» (مجموع الفتاوى ١١٩/٨) . وبين شيخ الإسلام بن تيمية أن القائلين بالكسب على قولين الأول: زعموا استقلال العبد بخلق فعله وهم الغلاة، والثاني: من قالوا إن للعبد بالتأثير نوع معاونة إما في صفة من صفات الفعل أو في و جه من و جوهه . (انظر مجموع الفتاوى ٣٨٦/٨) (انظر شفاء العليل ٥٠/١، ٥١)، وأوضح خلاصة قول أهل السنة والجماعة فيه « وتحقيق الكلام أن يقال فعل العبد خلق لله ﷻ وكسب للعبد إلا أن يراد أن أفعال بدنه تحصل بكسبه أي بقصده وتأخيه وكأنه قال أفعاله الظاهرة تحصل بأفعاله الباطنة و غير مستنكر عدم تجديد هذا السؤال فإنه مزلة أقدام ومضلة إفهام..» (مجموع الفتاوى ٣٨٨/٨).

وجـــود خلاف المقدور عجز ووجود خلاف المعلوم جهل ولا يليقان بالله تعالى وفي هذا بالإجماع من الجبر والقدر».[1]

خلاصـــة: رجح القرطبي أن أفعال العباد مخلوقة لله ﷻ واكتساب من العبد، وأن العـــبد لا يخلق فعل نفسه كما قالت بذلك المعتزلة، وذكر ابن جزي أقوال الناس في خلق الأفعال دون ترجيح لما ذكره .

الفصل السابع

الهدى والضلال

تواتـــرت الأدلـــة وتكاثـــرت على ثبوت حقيقة خلق الهدى والضلال والخير والشـــر بيد الله سبحانه، وأنه ما من عبد إلا وقد كتب الله لـــه الخير والشر والهدى والضلال في سابق الأزل الذي لا يتغير ولا يتبدل. وقد بين الإمامان القرطبي وابن جزي ذلك من خلال تفسيريهما، ومن الأدلة التي تثبت ذلك :

١- قولـــه تعـــالى: ﴿وَلَـــا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾[2] قال القرطبي: «فإليه التوفـــيق والخـــذلان وبيده الهدى والضلال يهدي من يشاء فيؤمن ويضل من يشاء فـــيكفر، ليس إلي من ذلك شيء فالله يؤتي الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً ويحرمه من يشاء وإن كان قوياً غنيا».[3]

وعند ابن جزي: أغفلنا، أي جعلناه غافلاً [4].

٢- واســـتدلا بقولـــه تعالى: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ .[5]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن١٨/١٣٣.

(٢) سورة الكهف: الآية(٢٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٣٩٣.

(٤) انظر التسهيل للعلوم التنزيل ٢/١٨٧.

(٥) سورة النساء: الآية(٨٨).

ذهب القرطبي ابن فرح أن هذا من الأدلة على خلق الهدى والضلال وتقديرهما، ورد على من زعم خلق الهدى دون الضلال[1]. وأقر الكلبي ابن جزي بظاهر الآية وقال: «أضلهم وأهلكهم».[2]

٣- وبقوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [3]

وقال القرطبي شارحاً الآية الكريمة «من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة وإن عمل بأعمال أهل الهدى، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى وإن عمل بأعمال الضلالة . ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة ثم رده الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه. قال وكان من الكافرين وفي هذا رد واضح على القدرية ومن تابعهم» [4] .

٤- وتعليقا على قوله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾[5]

قال: «يعني التكذيب بالقدر، وذلك أنهم تكلموا فيه، فقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾[6] يعني القدر خيره وشره من الله» [7] .

٥- وبقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [8]

وذهب أنه بتوفيق الله حسنه إليكم، وفي هذا رد على القدرية والإمامية وغيرهم، لا سيما أنه سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم [9].

كما تعرض القرطبي في تفسيره لبيان أهم الفرق التي أنكرت تقدير الهدى والضلال والخير والشر، وهم الإمامية والقدرية[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٧/٥.

(٢) انظر التسهيل للعلوم التنزيل ١٥١/١.

(٣) سورة الأعراف: الآية(٣٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨٨/٧.

(٥) سورة آل عمران: الآية(١٥٤).

(٦) سورة آل عمران: الآية(١٥٤).

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٢/٤، وانظر كذلك التسهيل لعلوم التنزيل ١٨٧/٢.

(٨) سورة الحجرات: الآية(٧).

(٩) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣١٤.

خلاصة : تكلما على مسألة الهدى والضلال والخير والشر وبينا أن الله تعالى كتب الهدى والضلال والخير والشر على كل أحد من الخلق، وبينا أن أكبر من عرف من الفرق المبتدعة في مخالفة ذلك هم المعتزلة والرافضة الإمامية .

الفصل الثامن

الطبع، الختم، الغشاوة، الأكنّة

تنوعت كلمات القرآن الكريم في إثبات القضاء والقدر، وأن الله كتب الضلال وقدره على من شاء من عباده .

الختم:

استدل القرطبي[٢] على ذلك بقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٣]

وقال ابن جزي: «الآية تعليل لعدم إيمانهم، وهو عبارة عن إضلالهم فهو مجاز وقيل حقيقة، وأن القلب ينقبض مع زيادة الضلال أصبعاً أصبعاً حتى يختم عليه، والأول أبرع» [٤] . (قلت): قدم ابن جزي قول المعتزلة في هذا الموضع، وزعم أن الإضلال مجاز مضاهاة لقول المعتزلة، وهو قول فاسد مخالف للنصوص الشرعية، فالإضلال عن الحق حقيقة لا شك في ثبوتها، على أن ابن جزي -يرحمه الله- يعتقد قول أهل السنة والجماعة في القدر .

وبقوله تعالى:﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [٥]

وذهب ابن جزي أن هذا الغلاف على قلوبهم بسبب كفرهم [٦].

الغشاوة:

---

(١) انظر المصدر السابق ٩٧/١٤، ٣١٨/٨، ٢٨٨/٤، ٣١٤/١٦.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٨٦/١.

(٣) سورة البقرة : الآية(٢).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٣٧/١.

(٥) سورة البقرة: الآية(٨٨).

(٦) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ٥٣/١.

استدلا[1] على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾[2]

الطبع:

استدل القرطبي في تفسيره[3] بحديث الخضر وتعليله لقتل الغلام : «أنه طبع يوم طبع كافراً»[4]، وعد ذلك من السبق الذي كتبه الله في قدره.

الأكنة:

استدلا[5] بقوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾[6]

وقال ابن جزي: «ومعنى الآية أن الله حال بينهم وبين فهم القرآن إذا استمعوه، وعبر بالأكنة والوقر مبالغة» [7] .

الأفْك:

استدلا[8]بقوله تعالى:﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[9]وذهب ابن فرح إلى أن الأفك هو الصرف عن الخير، وأن فيه رد على القدرية.وبقوله تعالى:﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾[10]، أي كانوا يصرفون في الدنيا عن الصدق والتحقيق[1]، وهذا ما سبقت به الأقدار

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٧٠/١٠ والتسهيل لعلوم التنزيل ٣٩/٤.

(٢) سورة الجاثية: الآية(٢٣).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ٣٦/١١، ٢١.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند ١١٨/٥، رقم: ٢١١٥٥، ٥/ ١٢٢. والترمذي في سننه ٣١٢/٥، كتاب التفسير، باب سورة الكهف، رقم: ٣١٥٠ . وعبد بن حميد في مسنده ٨٨/١ . والنسائي في السنن الكبرى ٤٢٩/٣ ، كتاب العلم، باب فضل العلم، رقم: ٥٥٤٤ .

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٧١/١٠.

(٦) سورة الأنعام: الآية(٢٥).

(٧) التسهيل لعلوم التنزيل ٦/٢.

(٨) انظر الجامع لأحكام القرآن ٣٢٢/١٤.

(٩) سورة الأنعام: الآية(٩٥).

(١٠) سورة الروم: الآية(٥٥).

الصرف:

قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾[٢]

وذهب القرطبي إلى أنها نزلت في القدرية عند أكثر المفسرين[٣]، وخالفه ابن جزي وذهب إلى أنها في القدرية بصيغة التضعيف، ورجح أنها في الكافرين[٤] .

السَّلْك:

ودليله قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾[٥]

وفسره القرطبي بأنه سلك الضلال والكفر والاستهزاء والشرك، وبين أن السَّلك لغة إدخال الشئ في الشئ كإدخال الخيط في المخيط، وأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم فيكذبونه لسابق القدر وأن في الآية رد على القدرية والمعتزلة في إنكار القدر[٦]، وفسر بوجه قريب منه ابن جزي في تفسيره بموضعها[٧].

*** سبب الإضلال والطبع والختم والغشاوة:**

يقرر ابن فرح القرطبي أن ذلك من كسب الإنسان وفعله وأن أعماله من المسببات لذلك – وإن كان القدر سبق به – واستدل بالأدلة الآنفة، وفسر بعض الآيات منها أنه بظلم الذين هادوا وبنقضهم الميثاق وفعلهم كذا وكذا طبع الله على قلوبهم[٨].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٢٥/٣، وانظر كذلك ٩/٤.

(٢) سورة غافر: الآية(٦٩).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ٣٣١/١٥.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٩/٤.

(٥) سورة الحجر: الآية(١٢).

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن ٧/١٠.

(٧) التسهيل لعلوم التنزيل ١٤٤/٢.

(٨) انظر الجامع لأحكام القرآن ٨/٦.

وكذلك بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [1]، «حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق».[2]

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[3]، أي من سبق له القضاء بالكفر لا تأتيه الهداية ؛ لأن الله يجازي كلاً بما يستحق.[4]

وقد تقدم تفسير ابن جزي أن سبب ختم الله على قلوب اليهود وصرفها عن الحق هو بسبب كفرهم [5].

خلاصة: تكلما على مفردات وردت في القرآن الكريم كالطبع والختم والصرف ونحوها وبينا أنها تعني السبق بالقضاء والقدر، وأنها لا تُبدل ولا تغير، وبينا أن عمل الإنسان من أسباب الإضلال والصرف عن الحق – وإن كان القدر قد سبق به – فإنه يأتي موافقاً له .

الفصل التاسع

القضاء، قضى، قضينا

الآيات التي تكلمت على كلمة القضاء وما تفرع منها كثيرة في القرآن الكريم، وقد بين القرطبي ابن فرح أن القضاء في اللغة يستعمل على وجوه :

القضاء يستعمل في اللغة على وجوه :

فالقضاء بمعنى الأمر.

والقضاء بمعنى الخلق.

والقضاء بمعنى الحكم.

والقضاء كقوله ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾[6] أي فرغ منه .

---

(١) سورة غافر: الآية(٣٥).

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ٣١٣/١٥.

(٣) سورة الزمر: الآية(٣).

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٤٣/١٥.

(٥) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ٥٣/١.

(٦) سورة يوسف: الآية(٤١).

والقضاء بمعنى الإرادة.

والقضاء بمعنى العهد.[١]

وفي موضع آخر نقل عن أهل اللغة أن قضى في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشئ وتمامه.[٢]

معنى قضى شرعاً: بين القرطبي أن معناها شرعاً ما قدره وكتبه وأراده[٣]، واستدل في مواضع [٤] بأدلة منها حديث مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :«لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتي تغلب غضبي».[٥]

وبقوله تعالى: ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٦]

وبحديث[٧]: «إذا قضى الله في السماء أمراً ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنها سلسة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير». [٨]

بينما ذكر الكلبي ابن جزي القضاء عند تأويل قوله تعالى﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾[٩]

وذكر أنه على مذهب أهل السنة قضى بمعنى قدره في الأزل، وعلى مذهب المعتزلة بمعنى أمضى عند الخلق والإيجاد، ورجح قول المعتزلة في تفسيرها إذ أن

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٣٧/١٠، وانظر كذلك ٨٨/٢.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ٨٧/٢.

(٣) انظر المصدر السابق٩٣/٤، ٢٢٦/٤، ١٥١/١٠.

(٤) انظر المصدر السابق٢٠٦/١١.

(٥) رواه سبق تخريجه في المبحث الرابع من الفصل الثالث .

(٦) سورة مريم: الآية(٣٥).

(٧) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٠٧/١١.

(٨) رواه البخاري ١٧٣٦/٤، كتاب التفسير، باب قوله إلا من فأتبعه شهاب مبين، رقم :٤٤٢٤. والحميدي في المسند ٤٨٧/٢، رقم: ١١٥١. وابن حبان في صحيحه ٢٢٢/١، ذكر وصف الملائكة..، رقم: ٣٦ .

(٩) سورة البقرة: الآية(١١٧).

«إذا» تقتضي الحدوث والاستقبال، وذلك يناقض القدم [1]، هذا مع أن ابن جزي يثبت القدر الأزلي لكنه لا يعد هذه الآية مما يستدل به على القدر، والله أعلم .

خلاصة: بينا أن لفظ القضاء مصدر وأنه يعني عند أهل السنة ما كتبه الله على العباد وحكم به عليهم، وأن ما قضاه لا يبدل ولا يغير وبينا أن القضاء عند القدرية يعني الإمضاء عند حدوث الفعل .

الفصل العاشر

قَدَرنا، قدّرناها، قيّضنا، مقضياً

هذه الكلمات الواردة في كتاب رب السموات جاءت في تنوع من الآيات وهي في المحصلة من أنواع الأدلة على أن الله تعالى علم وكتب وقدر الأشياء قبل كونها، وقد عدها الإمام القرطبي من الدلالات على القدر الذي سبق في علم الله، واستدل عليها بالأدلة عند شرحها.

قدّرنا:

في قوله تعالى:﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾[2]

وقرئت قَدَرْنا بالتخفيف، وهذا يفيد القدرة على الخلق، ويفيد المساواة في تقدير الموت بين أهل الأرض والسماء [3]، وقال ابن جزي: «أي جعلناه مقدراً بآجال معلومة وأعمال منها طويل وقصير ومتوسط». [4]

قَدَرْنا:

قوله تعالى:﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾[5]، في قراءة بالتشديد، ومعناها قدرنا الشقي والسعيد فنعم المقدرون[6] . وقال ابن جزي: «بالتشديد من التقدير وبالتخفيف من القدرة».[1]

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٢٥/٣، وانظر كذلك ٩/٤.

(٢) سورة الواقعة: الآية(٦٠).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢١٦/١٧.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٩١/٤.

(٥) سورة المرسلات: الآية(٢٣).

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٦٠/١٩.

قَدَّرناها:

بمثل القول الآنف -أنه القدر الكوني- فسر القرطبي[٢] قوله تعالى:﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ .[٣]

قيّضنا:

قوله تعالى:﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم ﴾[٤] قال القرطبي: «والمعنى قدرنا عليهم أن ذلك سيكون حكمنا به عليهم..» [٥]، وعند ابن جزي «أي يسرنا لهم قرناء سوء من الشياطين..».[٦]

مقضيّاً:

استدل القرطبي بقوله تعالى:﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾[٧] وقال: «أي مقدراً في اللوح مسطورا».[٨]

خلاصة : تكلما على الألفاظ الكريمة الواردة في القرآن كلفظ قدرنا قدرناها قيضنا، وبينا أن معناها ما كتبه الله في كتابه قبل خلق المخلوقات، وأنه من قدر الله المكتوب .

الفصل الحادي عشر

السبق بالحسنى والنصر

وهي من ألفاظ القدر التي وردت في نص الكتاب العزيز، والتي تفيد سبق كتابتها على المخلوقات، وقد استدل القرطبي والكلبي بها على القدر عند تأويل قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾.[١]

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٧١/٤.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢١٩/١٣.

(٣) سورة النمل: الآية(٥٧).

(٤) سورة فصلت: الآية(٢٥).

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن ٣٥٤/١٥.

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل ١٣/١.

(٧) سورة مريم : الآية(٢١).

(٨) انظر الجامع لأحكام القرآن ٩١/١١.

وعدهـــا من آيات القدر التي كتبها الله في الأزل[٢]، وبه جزم ابن جزي:«سبقت: أي قضيت في الأزل، والحسنى السعادة».[٣]

كما استدل القرطبي بقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾.[٤]

وبقوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[٥]

وقـــال: «وهـــذا كله إشارة إلى السبق في القول وذلك يوجب الأزل في الوجود وهـــذه النكتة كافية في الرد عليهم ولهم آيات احتجوا بها على مذهبهم»[٦]، ويريد بذلك الرد على القدرية .

وبيـــن ابن جزي أن معنى الآية: «أنه سبق القضاء بأن المرسلين منصورون على أعدائهم».[٧]

خلاصـــة : بينا من خلال الأدلة الواضحة أن الله تعالى كتب السبق بالسعادة الأخروية والسبق بالنصر لمن شاءه، وقدر ذلك كوناً قبل الخلق .

الفصل الحادي عشر

الاحتجاج بالقدر

وهـــذه مـــن المسائل التي تكلم عليها العلماء قديماً، وبينوا أنه لا يحتج بالقدر على المعاصي بإطلاق، كما لا يحتج به في حال مقارفة الذنب والإقامة عليه، وإنما جـــوزو ذلـــك بعـــد الـــتوبة والإنابة، وقالوا إنه يحتج بالقدر عند المصايب لا عند المعايب.

وفي تفسير ابن فرح القرطبي لقوله تعالى:﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[١]

---

(١) سورة الأنبياء: الآية(١٠١).

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٢٢/٧.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٣٣/٣.

(٤) سورة الصافات: الآية(١٧١).

(٥) سورة المؤمنون: الآية(١٠١).

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٢٢/٧.

(٧) التسهيل لعلوم التنزيل ١٨٧/٣.

وأورد أظهـــر دليل في المسألة وهو الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا مـــن الجـــنة؟ فقـــال آدم يا موسى اصطفاك الله ﷻ بكلامه وخط لك بيده يا موسى أتلومنـــي على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة فحج آدم موسى ثلاثا. قال المهلب قوله: «فحج آدم موسى» أي غلبه بالحجة».(٢)

وأورد شـــرحاً مطولاً خلاصته: «قوله: «فحج آدم موسى» أي غلبه بالحجة قـــال الليـــث بـــن سعد: إنما صحت الحجة في هذه القصة لآدم على موسى عليهما الســـلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه، فلم يكن لموسى أن يعـــيره بخطيـــئة قد غفرها الله تعالى لـــه، ولذلك قال آدم أنت موسى الذي آتاك الله الـــتوراة وفيها علم كل شيء فوجدت فيها أن الله قد قدر علي المعصية، وقدر على الـــتوبة منها وأسقط بذلك اللوم عني أفتلومني أنت والله لا يلومني؟ وبمثل هذا احتج ابـــن عمر على الذي قال له إن عثمان فر يوم أحد، فقال ابن عمر: ما على عثمان مـــن ذنب ؛ لأن الله تعالى قد عفا عنه بقوله: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ وقد قيل: إن آدم عليه السلام أب ولـــيس تعييره من بره أن لو كان مما يعير به غيره، فإن الله تبارك وتعالى يقـــول في الأبوين الكافرين: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾(٣) إبراهيم عليه السلام لما قال لـــــه أبوه وهو كافر﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾(٤)، فكيف بأب هو نبي قد اجتباه ربه وتاب عليه وهدى».(٥)

---

(١) سورة طه: الآية(١٢١).

(٢) رواه الـــبخاري ١٢٥١/٣، كتاب التفسير، ٣٢ باب وفاة موسى وذكره بعد . رقم:٣٢٢٨ . ومسلم ٢٠٤٢/٢ ، كـــتاب القـــدر، بـــاب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم: ٢٦٥٢ . وأحمد في المسند ٤٦٢/٢، رقم: ٧٥٧٨ .

(٣) سورة لقمان: الآية(١٥).

(٤) سورة مريم: الآية(٤٥).

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٢٢/٧.

خلاصـــة : بيـــن القرطبي أنه لا يحتج بالقدر على المعاصي واستدل بالدليل الشـــرعي عليه وبين أن آدم احتج بالقدر بعد أن غفر الله لـــه ذنبه، أما قبل ذلك فلا يحتج به .

الفصل الثالث عشر

اللوح المحفوظ

استدل العلماء على حقيقة اللوح المحفوظ بأدلة صريحة صحيحة تثبت وجود هذا اللوح الشريف، وما الذي فيه ومن يكتب فيه وما مهمة القلم وما صفته..

أورد القرطبي[١] وابن جزي في تفسيريهما عدة آيات تبين حقيقته ومن ذلك:

١- قولـــه تعالى:﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[٢]، قال ابن جزي: «يعني اللوح المحفوظ الذي في السماء».[٣]

٢- قوله تعالى:﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٤]، وقال القرطبي في تأويلها: «يعني القرآن في اللوح المحفوظ».[٥]

٣- قوله تعالى:﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [٦]، أي في اللوح المحفوظ.[٧]

*لماذا سمي باللوح المحفوظ؟

ســـماه الله بـــالمحفوظ لأنـــه محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه[٨]. وقال ابن جزي: «أي حفظه الله من التبديل والتغيير».[١]

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٩٨/١٩، ٦٢/١٦.

(٢) سورة البروج: الآية(٢١،٢٢).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩١/٤.

(٤) سورة الزخرف: الآية(٤).

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٦٢/١٦.

(٦) سورة القمر: الآية(٥٢).

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٤٩/١٧.

(٨) انظر المصدر السابق ٢٩٨/١٩.

وسمي باللوح لأنه يلوح للناظرين، وفي الصحاح لاح يلوح لوحاً أي لمح.[٢]

***ما الذي فيه؟**

بين القرطبي والكلبي في عدة مواضع -كما مر آنفا- أن الذي في اللوح المحفوظ هو كل ما كتبه الله تعالى من بدء الخليقة إلى أن تقوم الساعة[٣].

*** من الذي يكتب فيه ؟**

بين العلماء أن الذي كتب في اللوح المحفوظ هو القلم، بعد ذلك رفعت الأقلام وجفت الصحف . وقد استدل القرطبي على ذلك بحديث عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ما خلق الله القلم ثم خلق النون وهي الدواة وذلك قوله تعالى: ﴿ن والقلم﴾[٤]، ثم قال له اكتب قال وما أكتب؟ قال ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة قال: ثم ختم فم القلم..»[٥]، وذكر القرطبي أوصافاً لهذا القلم، منها أنه من نور، طوله كما بين السماء والأرض ..إلى غير ذلك من الأوصاف العجيبة، فالله أعلم بصحة تلك الآثار الموقوفة عن بعض الصحابة والتابعين [٦].

* المحو والإثبات في اللوح المحفوظ.

عند تأويل قوله تعالى:﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٧]

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩١/٤.

(٢) انظر المصدر نفسه ٢٩٩/١٩، ٢٨١/٧ ، وكذلك التسهيل لعلوم التنزيل ١٩١/٤.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٥٢/١٨، ١٩/٩، ٢٨٥، ٣٣٠، ٣٩٥/٦ _ والتسهيل لعلوم التنزيل ١٩١/٤، ١٨٧/٣.

(٤) سورة ن: الآية(١-٢).

(٥) رواه الحاكم في المستدرك ٤٩٢/٢، رقم: ٣٦٩٣ . والترمذي في سننه ٤٥٧/٤، كتاب القدر، باب ١٦، رقم :٢١٥٥ . والطيالسي في المسند ٧٩/١ ، رقم: ٥٧٧ . ونقل ابن حجر في فتح الباري ٢٨٩/٦ تصحيح بعض أهل العلم له .

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٢٥/١٨.

(٧) سورة الرعد:الآية(٣٩).

ذكـــر ابن فرح القرطبي أقوال أهل العلم في ذلك .. من أن المحو إنما يكون ما بأيدي الملائكة ونحو ذلك، وقال: « والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله، وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء، وقد تقدم أن من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً، وهو الثابت ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب وهو الممحو، والله أعلم».[1]

كما ذكر ابن جزي الأقوال في ذلك على نحو قريب مما ذكره القرطبي:

فقيل: يعني النسخ والإثبات من القرآن للأحكام.

وقيل: آجال بني آدم.

وقـــيل: المحـــو والإثـــبات على العموم في جميع الأشياء، قال: «وهذا ترده القاعدة المتقررة أن القضاء لا يرد وأن علم الله لا يتغير».

وقال بعضهم: المحو والإثبات في كل شئ إلا في السعادة والشقاوة الأخروية والآجال».[2]

خلاصـــة : بينا بالأدلة الشرعية حقيقة اللوح المحفوظ وما هو ومن الذي كتب فـــيه ومـــاذا كتب فيه، وما معنى المحو والإثبات المذكور في الآيات وهل يمحى ما كُتب في اللوح أم لا؟

الفصل الرابع عشر

الآجال بقدر

مـــن الأمـــور التي نبه عليها علماء أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً مسألة الآجال المقدرة المضروبة من المولى ﷻ يعضدهم في ذلك الأدلة الشرعية الصريحة أن الموت لابن آدم بقدر الله تعالى وتوقيته .

وقد استدل ابن فرح القرطبي وابن جزي على ذلك بأدلة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[1] وذهب إلـــى أن الآيـــة ترد على القدرية والمعتزلة في الآجال، فعرفهم الله أن الآجال متى انقضت فلا بد من مفارقة الروح للجسد [2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٣٢/٩.

(٢) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ١٣٦/٢، ١٣٧.

٢- قولـه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً﴾[٣] وتلكم ابن فـرح علـى الآية وقال في خلاصته: « ..أن كل إنسان مقتول مقتول ميت إذا بلغ أجلـه المكـتوب لـه ؛ لأن معنى مؤجلاً إلى أجل، ومعنى «بإذن الله» بقضاء الله وقـدره، و«كتابا» نصب أي كتب الله كتاباً مؤجلاً وأجل الموت هو الوقت الذي في معلومه سبحانه أن روح الحي تفارق جسده، ومتى قتل العبد علمنا أن ذلك أجله، ولا يصح أن يقال لو لم يقتل لعاش.والدليل عليه قوله: ﴿ كِتَابًا مُؤَجَّلاً﴾ ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْـتَأْخِرُونَ سَـاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [٤] ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾[٥] ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِـتَابٌ﴾[٦] والمعتزلي يقول: يتقدم الأجل ويتأخر وأن من قتل فإنما يهلك قبل أجله» [٧]. وقال ابن جزي: «المعنى كتب الموت كتاباً».[٨]

٣- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .[٩]

وبين القرطبي أن الله تعالى كتب الأجل وهو الموت إلى قدر معين فلا نؤخر أكـان بـالعذاب أم بغيره، وأضاف العذاب سبحانه لأنه هو الذي أثبته[١٠]، وقال ابن جـزي: «هـذا يقتضـي أن الأجـل محـتوم، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.[١١]

---

(١) سورة النساء: الآية (٧٨).

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٨٣/٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٣٤).

(٥) سورة العنكبوت: الآية (٥).

(٦) سورة الرعد: الآية (٣٨).

(٧) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٢٦/٤.

(٨) التسهيل لعلوم التنزيل ١ /١١٩.

(٩) سورة نوح: الآية (٤).

(١٠) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٩٩/١٨.

(١١) سورة الأعراف: الآية (٣٤).

وفـــي هـــذا حجة لأهل السنة وتقوية للتأويل الذي ذكرنا، وفيه رد على المعتزلة في قولهم بالأجلين».[1]

٤- أورد القرطبي حديث: «من أحب أن يبسط لـــه في رزقه وينسأ لـــه في رجاء، فليصـــل رحمه»[2]، وأورد الإشكال المتوهم عليه لما قيل لابن عباس كيف يزاد في العمـــر والأجل ؟ فقال: قال الله ﷻ: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ**﴾[3]« فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثانـــي يعني المسمى عنده من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شـــاء وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء فيزيده في أجل البرزخ، فإذا تحتم الأجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان لقوله تعالى: ﴿**فـــإذا جـــاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ فتوافق الخبر والآية وهذه زيـــادة فـــي نفـــس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ في اختيار حبر الأمة والله أعلم».[4]

خلاصة : تكلما على الآجال وأنها مضروبة مقدرة من الله، وأن الله كتب كل شئ ومن ذلك الآجال التي إذا حانت مات الإنسان، وردا على المعتزلة في قولهم بأن للإنسان أجلان، وأن المقتول مقطوع عليه أجله .

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ /١١٩.

(٢) رواه الـــبخاري ٧٢٨/٢، كـــتاب البيوع، ١٣ باب من أحب البسط في الرزق. ومسلم ١٠٨٢/٤، كتاب البر والصلة، ٦ باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها . وأحمد في المسند ١٥٦/٣،رقم: ١٢٦١٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية (٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣٣٠/٩.

الخاتمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى وعلى نبينا محمد وآله وصحبة ومن اقتفى،،

وبعد ففي نهاية هذا البحث لا بد من ذكر بعض النتائج التي توصلت إليها من خلال بحثي وتأملي لما بينه القرطبي والكلبي :

١- أن العلماء في القطر الأندلسي يعتقدون معتقد أهل السنة والجماعة من حيث الجملة، وقد يجتهدون فمنهم المصيب ومنهم المخطئ .

٢- أن الفقيهين العالمين ابن فَرْح القرطبي وابن جُزَيّ الكلبي يعتقدان عقيدة أهل السنة والجماعة في مسألة القضاء والقدر وأنها من أركان الإيمان .

٣- بين القرطبي والكلبي أن ألفاظ القضاء والقدر التي أثبت الله بها هذه العقيدة الفريدة متعددة ومتنوعة، وتعتبر هذه الألفاظ من أنواع الأدلة على إثبات القدر .

٤- بينا أنه لا تجوز الصلاة خلف أهل البدع من القدرية والإمامية الذين ضلوا في القدر، وأنه يجب هجرهم حتى يعودوا إلى الحق .

٥- بينا أن الله تعالى خلق العباد وأفعالهم وردا على المعتزلة في اعتقادهم أن العبد يخلق فعل نفسه .

٦- بينا أن الله تعالى قدر الهدى والضلال والخير والشر وكتبه في الأزل.

٧- بينا أنه لا يجوز الاحتجاج بالقدر على المعصية، وإنما يكون ذلك بعد أن يتوب الله على العبد .

٨- بينا أن اللوح المحفوظ هو ما كتب الله فيه كل شئ من الأقدار وأن الكاتب فيه القلم، وأن ما كتب فيه فهو مبرم محكم وأنه لا يمحى أبداً.

٩- بيــنا أن الآجال بقدر الله تعالى وأن الميت يموت بأجله وردا على المعتزلة في زعمهم أن المقتول مقطوع عليه أجله .

الفهارس

الجــامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ت:أحمد البردوني، دار الشعب (القاهرة)، ط. الثانية.

التسهيل لعلوم التنــزيل، للإمام محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي، دار الكتاب العربي، ط. الثانية، ١٣٩٣ ــ ١٩٧٣) .

طبقات المفسرين، للحافظ سمش الدين محمد بن علي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة (مصر)،ط.الأولى ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م

طبقات المفسرين، للحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة(القاهرة) ط. الأولى ١٣٩٦هـ.

نفح الطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر (بيروت)، طبعة جديدة ١٩٩٧، وقديمة، ١٩٦٨.

كشــف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى القسطنطيني الرومي، دار الكتب العلمية (بيروت) ١٤١٣هـ ١٩٩٢م).

الإحاطة في أخبار غرناطة، للسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط. الثانية ١٣٩٣، ١٩٧٣.

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن على بن فرحون، تحقيق: د. محمد الأحمــدي، أبــو الــنور، دار الكتــب العلمية (بيروت)، وطبعة مكتبة دار التراث (القاهرة).

معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار الفكر (بيروت).

صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج النيسابوري . تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي(بيروت) ١٣٧٤هـ ١٩٥٤م.

المسند للإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة بمصر (عن النسخة الميمنية).

صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، للإمام محمد بن حبان التميمي،
تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة (بيروت) ١٤١٤هـ ١٩٩٣م
المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم،
تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت)، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.
الجامع الصحيح، محمد ين عيسى الترمذي،
مراجعة: أحمد محمد شاكر، وآخرون، دار إحياء التراث الإسلامي (بيروت).
شعب الإيمان لأبي بكر البيهقي، ت: محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط. الأولى، ١٤١٠هـ .
مسند عبد بن حميد، لأبي محمد عبد بن حميد بن نصر ، ت: صبحي السامرائي، محمود الصعيدي، مكتبة السنة (القاهرة) ط. الأولى، ١٤٠٨هـ.
السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، ت: د. عبد الغفار البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية (بيروت) ط. الأولى ١٤١١هـ.
مسند الحميدي، لأبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي،
تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية(بيروت)١٣٨١هـ.
الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري،
تحقيق: مصطفى البغا، دار ابن كثير (بيروت) ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
مسند الطيالسي، سليمان بن داود الطيالسي، دار المعرفة (بيروت).
فتح الباري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة (بيروت) ١٣٧٩هـ .
مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .
منهاج السنة النبوية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية،ت: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط.الأولى ١٤٠٦هـ.
شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعلل، لأبي بكر شمس الدين بن القيم، ت: محمد بدر الدين الحلبي، دار الفكر (بيروت).